

بكر بن حماد التاهرتي الجزائري

200 هـ - 296 هـ

دراسة في سيرته وشعره

د/ فورار أمحمد بن لخضر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية الاجتماعية

جامعة بسكرة

الملخص:

Résumé:

Cet article a traité un ensemble de poèmes de poète BAKR Ben HAMMAD, qui est devenu célèbre avec la naissance du premier état Algérien au début du troisième siècle de l'hégire.

L'étude biographique et l'analyse des différents thèmes poétiques ; de l'éloge, de la satire, de l'élégie et des thèmes de méditation...ont abouti à des particularités artistiques. Ces spécificités remarquables font du poète un poète éminent et ont mérité BAKR Ben HAMMAD le nom de « poète »

سطع نجم بكر بن حماد مع قيام أول دولة جزائرية في مطلع القرن الثالث الهجري، فأمكننا اللثام عنها وعن سيرة الشاعر، وعكفنا بالدراسة والتحليل لبعض موضوعاته الشعرية كالمدح، والهجاء، والثناء، إلى التأمل والاعتبار... وأفضت الدراسة - رغم قلة ما وصلنا من شعر ابن حماد - على أنه كان شاعرا فحلا، استطاع بنبوغه المبكر أن يفتك لقب "الشاعر".

مقدمة

بعد سقوط الخلافة الأموية في المشرق على أيدي العباسيين شهد المغرب العربي استقلالاً عن الخلافة في المشرق، وانقساماً بين أقطاره الثلاثة، فأسس إبراهيم بن الأغلب التميمي سنة 184 هـ دولته التي دُعيت باسمه، وعاصمتها القيروان (1)، ودامت سيادتها قوية إلى أن قضى عليها أبو عبيد الله الشيعي سنة 296 هـ (2) .

وكان يجاور الأغلبة من الجهة الغربية بالمغرب الأوسط (3) الدولة الرستمية التي تأسست سنة 144 هـ، ومؤسسها عبد الرحمن بن رستم (4) الذي اتخذ مدينة تاهرت (5) عاصمة لمملكه (6)، فكانت أول دولة إسلامية جزائرية مستقلة، ودامت نحو 152 سنة، إلى أن سقطت على أيدي العبيديين سنة 296 هـ (7) .

كان رائد هذه الدولة الكتاب والسنة، ونظامها الديمقراطية الحقة، فالإمام ينتخب، أو يختار مدى الحياة، بعد توفر فيه الكفاءة والنزاهة والمقدرة، ومساعدوه مخلصون وأمناء في شؤون الإدارة والمالية (8) .

أما لغة الدولة الرسمية فهي العربية، إلا أن اللغة البربرية كان لها حضور كبير، فهي لغة التخاطب، وكثيراً ما كان يلجأ إليها العلماء لإلقاء دروسهم الفقهية والدينية . وعماد الدولة الخلق الحسن والعادات الراقية والعلم الغزير (9) .

والدولة الرستمية كانت ملتزمة بحدودها، لا تعتدي على جيرانها، تفضل أن تأخذ بيد الشعب للوصول إلى ذرى الرقي والازدهار المادي والأدبي، فشيدت القصور والمساجد والمنزهات، وقصد تاهرت أهل العلم وأرباب الصناعات والحرف من شتى الأقطار الإسلامية، وازدهرت الفلاحة والصناعة والتجارة، فعم البلاد الاستقرار والأمن والرخاء (10)، ذلك أن رجال الدولة عرفوا بالتسامح، ففسحوا المجال للمذاهب الإسلامية الأخرى دون تعصب أو تقييد لحرية الناس (11) .

لقد نشطت الحركة الثقافية في عهد هذه الدولة نشاطاً لم تعرفه من قبل وقد شارك فيها أهل القيروان بعلومهم وآدابهم، حتى أصبحت تاهرت مركزاً ثقافياً يضاهي قرطبة وبغداد إلى أن سميت بعراق المغرب (12)، وما يزيد نشاط تلك المكتبة المعروفة بالمعصومة، فهي تزخر بالآلاف من المجلدات، وأمدت كل طالب علم بما

يحتاج إليه من معرفة، لكن هذا التراث الضخم أتى عليه التأثير العبيدي بالحرق والإتلاف ماعدا الكتب الخاصة بعلوم الأوائل كالطب والرياضيات (13) .

ويعلق على هذا العمل المشين عبد المالك مرتاض بقوله: ((إن إحراق المعصومة وهي أول مكتبة عمومية أسست في الجزائر، على ذلك المستوى الثقافي من الازدهار والغنى؛ سيظل وصمة عار عالقة بالعبديين الذين لم يكن من حقهم قط إحراقها لأنها لم تكن مما يمتلكون، فما أغراهم بها ؟ ولم كان التعصب السياسي، والنزعة الأيديولوجية المشينة، يبلغان بتلك الدول المتعاقبة، هذا المبلغ المزري ؟ وكأني بتلك الفعلة الشنيعة وهي تضارع فعلة المتطرفين الفرنسيين الحاقدين حين أحرقوا، هم أيضا، وبكل جهالة ودناءة، وخسة وحقارة، وتعصب وهمجية، المكتبة الوطنية بالجزائر عام اثنين وستين وتسعمائة وألف حين أيقنوا بأنهم لا محالة ذاهبون من الجزائر ... فما أشبه اليوم بالبارحة ! وما أتفه الرؤية السياسية الضيقة : اليوم والبارحة !!)) (14) .

راج الأدب والعلم في ظل هذه الدولة، وظهر فيه أول جيل من الأدباء الجزائريين الحقيقيين، نظموا الشعر وأكثروا القول فيه ولكن ظل يسير في اتجاه المدرسة المشرقية المحافظة.

ومنهم الإمام أفلح بن عبد الوهاب (188 هـ 238 هـ) الذي نبغ في الأدب وقول الشعر، وهو صاحب القصيد المشهورة في فضل العلم وأهله والتي مطلعها (15) :

العلم أبقى لأهل العلم آثارا	يريك أشخاصهم زوجا وأبكارا
حتى إن مات ذو علم وذو ورع	ما مات عبد قضى من ذاك أوتارا
وذو حياة على جهلها ومنقصة	كميت قد ثوى في الرمس أعصارا
لله عصابة أهل العلم إن لهم	فضلا على الناس غيابا وحضارا

وهي قصيدة طويلة في خمسة وأربعين بيتا كلها في تمجيد العلم والعلماء (16)، وله رسائل وخطب واضحة سهلة الأسلوب، تساير العصر وتواكب ظروفه، تتجلى فيها شخصية الرجل السياسي المحنك والناثر الحاذق والخطيب البليغ (17) .

والإمام أبو بكر بن أفلح، الذي جره ولعه بالاشتغال بالأدب والعلم إلى إهمال شؤون الإمامة، بل وترك أمرها لأخيه أبي اليقظان محمد بن أفلح (18)،

وأما أبو سهل حفيد أفلح الذي قيل عنه كان يجيد البربرية، ومن أكبر المؤلفين بها، إضافة إلى إجادته للغة العربية، مما مكنه من تولي خطة الترجمة بديوان الحكومة الرستمية (19) .

في ظل هذه الدولة التي رعت العلم والعلماء وشهدت رقي الأدب وازدهاره ولد ونشأ بكر بن حماد .

حياة بكر بن حماد :

هو بكر بن حماد بن سهل (وقيل صالح، وقيل سيهر، وقيل سمك) بن إسماعيل الزناتي التاهرتي، ويكنى بأبي عبد الرحمن (20) .

ولد بتاهرت سنة 200 هـ، وكان من قبيلة زناتة البربرية الضخمة، ولا نعرف شيئاً عن أسرته. ويبدو أن أباه لم يكن إياضياً، ووجهه إلى العلم ((فتلقى دروسه الأولى على مشاهير علمائها وجلة فقهاءها وكبار محدثيها)) (21)، وشغف بالشعر وتفتحت ملكته مبكراً (22) .

يرحل بكر بن حماد في سن السابعة عشر إلى بلاد المشرق، فتوقف في القيروان ((وقرأ بها الفقه والحديث وبقية العلوم التي كانت تلقى آنذاك بمساجدها وبالأخص على الشيخ عون بن يوسف الخزاعي والإمام سحنون بن سعيد التتوخي)) (23) .

لقد ضنت الأخبار في الزمن الذي استغرقه في القيروان، وجلس فيه أمام شيوخه، وقد ورد في رياض النفوس، قوله : ((قال بكر بن حماد : لما فرغت من قراءة كتبي كلها على عون - وهي كتب ابن وهب (24)، قلت له: " يا أبا محمد كيف كان سماعك عن ابن وهب ؟ " فقال لي: " يا بني أقال أحد فينا شيئاً ؟ " ثم قال : " والله ما أحب أن يعذب الله أحداً من أمة محمد صلة الله عليه وسلم بسببي بالنار - أبطل الله سعيه وصومه وصلاته وسائر عمله إن كنت أخذتها من ابن وهب إلا قراءة - قرأت عليه أنا وقرأ علي ولو كانت إجازة لقلت : إنها إجازة " . وقد حضرت ابن وهب وأتاه رجل بكتبه في تلبس، فقال له : " يا أبا محمد هذه كتبك " فقال له ابن وهب : " صححت وقابلت ؟ فقال نعم " فقال له : " اذهب فحدث بها فقد أجزتك لها، فإني حضرت مالكا، وقد فعل مثل ذلك)) (25) .

شعر بكر بن حماد :

وديوان بكر بن حماد سقط من يد الزمن غير أن " محمد بن رمضان شاوش " استطاع أن يجمع طائفة كبيرة من أشعاره وهي تقدر واحد ومائة بيت، وذلك بعد استبعاد القصيدة التي قيلت في هجاء الخليفة المعتصم العباسي، إذ لا يصح أن يكون الخليفة ممدوح ابن حماد، ويصير خصمه دونما سبب سياسي أو مذهبي، وما يزيل الشك نهائيا، هو أن هذه القصيدة أوردها الإصفهاني باسم صاحبها دعلب الخزاعي (26)، وأعاد "الساحي" جمعه، بعد أن أسقط القصيدة نفسها ولكن دون تعليق، فعثر بعد بحث دقيق أن ثلاث أبيات في الغزل لم يدرجها " رمضان شاوش " في الدر الوقاد - وقد سبق ذكرها - فيقدر عدد الأبيات بمائة وسبعة، موزعة على تسع عشرة قصيدة ومقطوعة، وذلك بزيادة مقطوعة عن محمد بن رمضان شاوش .

وأما الباحث الجزائري "مرتاض" فإنه يثبت بيتين إلى أبيات اللامية (27) في رثاء عبد الرحمن، كما قادته تجربته الطويلة في البحث، ورهافة حسه أن يكتشف مقطوعة مجهولة القائل (28)، أوردها ابن عذارى (29)، فبعد دراسة سيميائية لها (30) أثبت أنها لابن حماد لوجود كثير من ملامح الشبه بينها وشعر الشاعر .

بهذا البحث الدقيق والجهد الكبير من طرف الباحثين الجزائريين الثلاثة - حسب علمنا - يصل شعر ابن حماد إلى مائة وستة عشر بيتا، موزعة على عشرين قصيدة ومقطوعة، أكثرها ستة عشر بيتا وأقلها بيت واحد .

نتناول نتاج بكر بن حماد من أغرض الشعر العربي : المدح، والهجاء والتحريض والنقد، والوصف، والتأمل والاعتبار، والزهد والوعظ، والاعتذار، والرثاء، وقد وصل إلينا منه قصائد ومقطوعات وأبيات قليلة .

وأما الكثير من شعره فقد ضاع لأسباب عديدة يعدد رمضان شاوش منها :

- 1 - ولوع المغاربة برواية وحفظ إنتاج المشاركة، وإهمال ما تنتج قرائح أبناء وطنهم لأن المشرق في نظرهم كان ولا يزال ينبوع العلم والدين واللغة والأدب .
- 2 - إهمال المشاركة لإنتاج المغاربة ولو كان هذا الإنتاج ذا قيمة فنية، لأن المغرب كان في نظرهم موطن الجهل والامية والبطانة .

3 - إقامة شاعرنا بالمشرق تلك المدة الطويلة التي جعلت المغاربة يجهلونه والمشاركة يتجاهلونه، فلم يحفلوا بشعره ولا دونوه (31) .

وأما الباحث "مرتاض" فإنه، بعد أن أشار إلى قدرة ابن حماد الشعرية، وما جادت به قريحته في المشرق، تعجب من انعدام أخباره هناك، يقول: ((وربما يعود خلو كتب الأدب من ذكره (يعني ابن حماد) إلى ما يمكن أن نطلق عليه تجاهل المشاركة للمغاربة، منذ القدم، وعدم عنايتهم بأخبارهم، والزهد في آثارهم، إلا ما اشتهر منها، أو اتصل أمرها بهم)) (32) .

إن عدم اكتراث المشاركة بأخبار المغاربة كانت قديمة - كما تقدم- ويضاف إلى ذلك العمل المشين المتمثل في حرق مكتبة المعصومة التي يذكر عن ((عبد الوهاب ابن عبد الرحمن الرستمي(171 هـ - 221 هـ)، أنه أرسل إلى بعض الإباضيين في البصرة بألف دينار ليشتروا له كتباً بها فاشتروا له كثيراً من الكتب وأرسلوها إليه على أربعين بعيراً كما يقول الباروني في الأزهار الرياضية. وما زال خلفاؤه يجمعون لتلك المكتبة...حتى بلغت ثلاثمائة كتاب)) (33)، ولو وصلنا هذا التراث المفقود، ومنه شعر بن حماد، لا اكتملت الصورة، ولا يسعنا إلا أن نذكر قول رمضان شاوش: ((لكن قلة ما بأيدينا من شعر بكر بن حماد لا يبرر إصدار حكم نهائي في شأنه إذ المستقبل كشف)) (34) .

ومع عدم رواية شعر ابن حماد، والاستهانة بقيمته، وضياح الكثير منه بعدم تدوينه، أو تعرضه للحرق، فما هي بعض النماذج من شعره :

المدح :

لقد مدح بكر بن حماد الخليفة المعتصم العباسي - كما تقدم - ولم تصلنا مدائحه فيه، ومدح الأمراء والأعيان في المغرب بأقطاره الثلاثة، وما وصلنا منه قليل . ومدحه على العموم يسير في اتجاه المدرسة المشرقية المحافظة - كما تقدم - فهو يشيد فيه بكرم الممدوح ونسبه وشجاعته، ومن ذلك مدحه أحمد بن سفيان أمير الزاب (- 260 هـ)، يقول (35) :

وقائلة زار الملوك فلم يفد فيا ليتَه زار ابن سفيان أحمدا

فتى يُسخط المالَ الذي هو ربه ويرضي العواليا والحسام المهندا
فهو يرى أن مثل هذا القائد الأعلى في النصر، الذي حققه للدولة الأغلبية، وهو
عاملها على الزاب، وبلائه الحسن في الفتح بصقيلية بقوة السلاح، يرى أنه زاهد في المال
الذي يجود به على كل قاصد بابه .

الهجاء

تناول بكر بن حماد موضوع الهجاء المشوب بالمدح، فأجاد فيه وأصاب مكامن
خصومه، ولعل طبعه في الهجاء وما إليه، كان أطوع منه في المديح وتعداد المحاسن،
وذكر له في الهجاء المقطوعة السالفة في دعبل التي يحرض فيها الخليفة المعتصم على
الفتك به، وكان عمران بن حطان الخارجي قد أشاد بشقي الخوارج عبد الرحمن بن
ملجم المرادي، قاتل علي بن أبي طالب، وفي طعنته له، يقول (36) :

يا ضربة من تقيٍّ ما أراد بها إلا ليلغ من ذي العرشَ رضوانا
إني لأذكره حيناً فأحسُّبه أوفى البرية عند الله ميزانا

وسمع - أو قرأ - البيتين بكر بن حماد السني فاستشاط غضبا وحمية للإمام علي
بن أبي طالب رضي الله عنه، وعارض البيتين بقصيدة هجا فيها ابن ملجم هجاء مريرا
مع بيان ما للإمام علي من فضل عظيم في الإسلام ليبين مدى جناية ابن ملجم وما ارتكب
من إثم شنيع، وفيها يقول (37) :

قل لابن ملجم والأقدار غالبه هدمت، ويلك، للإسلام أركانا
قتلتَ أفضل من يمشي على قدم وأول الناس إيمانا وإسلاما
و أعلم الناس بالقرآن ثم بما سنَّ الرسول لنا شرعا وتبيانا
صهرُ النبي ومولاه وناصره أضحت مناقبه نورا وبرهانا
وكان منه - على رغم الحسود له - مكان هرون من موسى بن عمران
ذكرتُ قاتله والدمع منحدرٌ فقلت سبحان ربَّ الناس سبحانا
أشقى مُراد إذا عدَّتْ عشائرها وأخسرُ الناس عند الله ميزانا
يا ضربة من شقيٍّ أورثته لظى مخلداً وأتى الرحمن غضبانا

وابن حماد يصور فضائل الإمام علي ليجسد جريمة ابن ملجم وفداحة ما اقترفه، إذ هدم ركنا ضخما من أركان الإسلام، وكان علي أول الناس إيمانا وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله، وكان صهره وسيفه المسلول على أعدائه وأعداء الدين في جميع غزواته . ويشير إلى الحديث النبوي ((علي منى بمنزلة هرون من موسى))، وإنه ليذرف عليه الدمع مدرارا، ويقول إن ابن ملجم أشقى قبيلته مُراد وأخسرُ البرية ميزانا عند ربه، ويا لها ضربة أو طعنة تستصليه نار جهنم خالدا فيها مع غضب الله عليه غضبا شديدا . وواضح أنه هجاء مر ومقذع لسني ضد قاتل الإمام علي.

وصف الطبيعة :

وصف الطبيعة غرض مهم من أغراض الشعر العربي في كل عصر وفي كل إقليم، فدائما الشعراء يتغنون بما تقع عليهم أبصارهم من مشاهد الطبيعة الصامتة : من الرياض والأزهار والجمال والأنهار والبحار، وما يروعونهم من مشاهد الحياة المتحركة في الطير والحيوان الوحشي والأليف، وابن حماد لم يصلنا مما قاله في هذا الموضوع إلا أبيات قليلة، ومنه مقطوعته في الطبيعة الصامتة إذ يصف برد تاهرت، موطنه الأصلي، وما عان من بردها الشديد القاسي (38) :

ما أخشن البرد وريعانهُ و أطرفَ الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم إذا ما بدتُ كأنما تُتشر من تحت
فنحن في بحر بلا لجة تجري بنا الريح على السمّت
نفرح بالشمس إذا ما بدت كفرحة الذمي بالسبت

وهو يقول ما أشد خشونة البرد وصعوبته في تاهرت وما أطرف طلوع الشمس بها إذ تبدو محجة دائما من وراء الغيم وكأنما تنتشر من وراء تخت أو ستر صفيق، وإننا لنشعر لشدة البرد كأننا في بحر بلا لجة، وما أشد فرحتنا بالشمس حين تبدو كفرحة اليهودي بيوم السبت، يوم عيده الأسبوعي .

وقد ذكر الحميري تاهرت بأنها شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج حينما أورد أبيات ابن حماد هذه، قائلا : ((ونظر رجل من تاهرت إلى توقد الشمس بالحجاز فقال : احرقني ما شئت فو الله أنك في تاهرت لذيلة)) (39) .

الرثاء :

أجاد ابن حماد في الرثاء، وتدفقت فيه عاطفته الحزينة المكلومة، وهذه المقطوعة التي نظمها في فقده لابنه عبد الرحمن، وقد رثاه بمقطوعات كثيرة، في قوله يخاطب نفسه، وقد وقف على قبره (40) :

قف بالقبور فناد الهامدين بها	من أعظم بليتُ فيها وأجساد
قوم تقطعت الأسباب بينهم	من الوصال وصاروا تحت أطواد
كيف البقاء وهذا الموت يطلبنا	هيهات هيهات يا بكر بن حماد
بينا ترى المرء في لهو ولعب	حتى تراه على نَعش وأعواد

شعر التأمل والاعتبار :

كان ابن حماد يتأمل في الدنيا وأهلها وأحوالها، ومن تأملاته نظراته إلى طبقات المجتمع المختلفة من حيث مكانتها وأموالها، فهذا غني يتمتع بأطياب الحياة ويتقلب تحت ظلال النعيم، وهذا فقير يحيط يمينا وشمالا في طلب الرزق ن فيجد بعد الكد ما يسد به رمقه، أو يعود بحسرة كاوية، ذلك أن الأرزاق مقسومة، وأن الحرص لا يزيد الإنسان ولا ينقصه شيئا، وكل ذلك قد أوحى إليه أن يقول (41) :

تبارك من ساس الأمور بعلمه	و ذل له أهل السماوات والأرض
و من قسم الأرزاق بين عياده	وفضل فيها بعض الناس على بعض
فمن ظن أن الحرص فيها يزيده	فقولوا له يزداد في الطول والعرض

وينظر إلى الأيام والليالي فيراها تنقص من عمر الإنسان وتسوقه حيثما إلى حفرة الأخيرة، وهو مع ذلك لا يهتم بهذه التحينات التي تنتابه، ولا يتزود لحياته الأخيرة المجهولة، وهو إذ يتأمل كل ذلك فيتعجب من غفلة الإنسان ثم يقول (42) :

نهار مشرق وظلام ليل	ألحا بالبياض وبالسواد
هما هدماء دعائم عمر نوح	ولقمان وشداد وعاد
فيا بكر بن حماد تعجب	لقوم سافروا من غير زاد
تبيت على فراشك مطمئنا	كأنك قد أمنت من المعاد
فيا سبحان من أرسى الرواسي	وأوتدها مع السبع الشداد

لقد أجاد ابن حماد شعر التأملات في الحياة وأحداثها، لأن البيئة التي عاش فيها، كانت بيئة فرق إباضية ومعتزلة وأهل سنة، وأهل هذه الفرق كانوا يخوضون في أبحاث تتصل بالفلسفة الكلامية اتصالاً وثيقاً، ومنها مشكلة الخير والشر، والغنى والفقر، والسعادة والشقاء، والقضاء والقدر، ومصير الإنسان، وغيرها.

نلاحظ في شعره هذا تكرار اسمه لعل ذلك ما يؤكد ثقته بنفسه، فهو في هذه الموضوعات ينظر إلى الدنيا وأحوال الناس نظرة مفعمة بالحسرة والأسى.

شعر الزهد والوعظ :

برزت نزعة الزهد مع التابعين الذين استقروا بالقيروان، وكان مجلس الإمام الشيخ سحنون بالقيروان يضم طائفة من الزهاد والعباد، وكان يعطف عليهم ويكبر شأنهم، واستمرت هذه النزعة في نمو مطرد، وكان ابن حماد وغيره من تلاميذ سحنون يميلون إلى هذه النزعة وينشئون فيها القصائد، ويشدون في المجالس الدينية في القرن الثالث ويحاربون النزعة المادية التي يمثلها الأمراء والأثرياء من الحكام.

ونزعة الزهد في شاعرنا ظهرت واضحة قوية، ومقطوعاته فيه كثيرة، وقد عكس بذلك بيئته الدينية وصور بشعره ما كان يحول في نفوس العباد والزهاد.

إن شاعرنا أجاد في هذا الموضوع إجادة ملحوظة وشعره نبع فياض لنفس زاهدة صادقة، ومراة صافية لروح متقية معرضة عن متاع الدنيا، ومتزودة بالعمل الصالح للحياة الأخرى، وإن كان ذلك لا يمنع من ظهور الشاعر الراغب فيه (متاع الدنيا)، الطالب لصلوات أهلها تحت وطأة الحاجة وبدافع العيش، وقد تقدم شيء من ذلك في المدح.

وقد رويت عن الشاعر في الزهد والوعظ مقطوعات تختلف طولاً وقصراً، وجوده وضعفاً، ومنها قصيدته القافية (43) :

لقد جمحت نفسي فصدت وأعرضت	وقد مرقت نفسي فطال مروقها
فيا أسفي من جُنَح ليل يقودها	وضوء نهار لا يزال يسوقها
إلى مشهد لا بد لي من شهوده	ومن جُرَع للموت سوف أدوقها
سحاب المنايا كل يوم مظلة	فقد هطلت حولي ولاح بُروقها

تهجّمت خمسا بعد سبعين حجةً ودام غروبُ الشمس لي وطلوعها
وأيدي المنايا كلَّ يوم وليلة إذا فتّقتُ لا يستطاع رُتوقها
تُصبّح أقواما على حين غفلة ويأتيتك في حين البيات طُروقها

وهو يقول إن نفسه جمحت منه وركبت هواها وعصته عصيانا شديدا، إذ لا تسمع إلى نصحه وإرشاده، وكأنما زمامها بليل مظلم مما يؤسفه وإنها لا تتطلع إلى ضوء نهار مشرق يريها المشهد الحقيقي من الموت وجرعة وما سيتذوق منه، وإن سحب الموت ليظله، وإنه ليهطل من حوله وتلمع بروقه، وقد احتمل خمسا وسبعين حجة، وطالما أشرقت عليه الشمس وغربت أيدي الموت من حوله إذا فتّقت فتقا لا يستطيع أحد رتقه، وتصبّح أقواما فجأة بمن تختطفه منهم وبالمثل تمسيهم، وما أحرانا أن نعمل لآخرتنا قبل فوات الأوان .

ويستشف الدراسي لشعر بكر بن حماد الزهدي ظاهرة عامة وهو التشاؤم المرير، وخيبة الأمل للإنسان الذي يريد أن ينال السعادة والخير في هذه الحياة، فعليه إذا أن يعكف على العبادة وعلى التزود منها بالزاد الصالح ليلالي وجه ربه نقيًا طاهرا، وهذه الظاهرة تطبع عادة أكثر ما قبل في شعره الزهدي .

ولعل الشاعر قد تأثر في زهدياته بأبي العتاهية ويبدو أنه قرأ له في رحلته إلى المشرق ودرس قصائده الزهدية ولكننا نستطيع أن نقول بأن شاعرنا ذو طابع خاص به في الزهد لا نجده عند أبي العتاهية أو غيره، وهذا الطابع هو الزهد الوجداني الذاتي، فقصائده التي نظمها في هذا الغرض حدثنا فيها عن نفسه، وعبر فيها عن خواجه ومشاعره، فكانت قصائده لذلك صورة حية لمشاعره الزهدية وعواطفه الخلقية، بخلاف قصائد أبي العتاهية التي أنقلها الأسلوب التقريري، وأضعف قوتها العاطفية روح التفكير والتأمل، فكانت دونها في التأثير، وإن كانت أقوى منها في قوة الأسلوب، وأدخل إلى البيان العربي الموروث (44) .

ويلق " محمد رمضان شاوش " على شعر ابن حماد، وبخاصة الزهد والوعظ فيقول : ((نعم إن ابن حماد كان كابن العتاهية يغلب عليه الزهد والوعظ في أكثر ما بين أيدينا من شعره الذي هو من الجودة بمكان مع وضوح المعنى ولطفه ورقته وانطباعه

وقربه من أفهام الناس كما يمتاز كذلك بقلّة التكلف وسهولة التعبير مع بساطة اللفظ وسلاسته بحيث ينقاد إلى فهمه الخاص والعام بدون كثير عناء (((45) .

وأما "محمود مكي" فإنه أشار - كما تقدم - إلى صدق ابن حماد في رثائه وفي التأمل والاعتبار، وأعجب بتعدد مصادر ثقافته، فهو لغوي ومحدث وفقه وشاعر، وما يزيده إعجاباً، قوله: ((والواقع أن هذا التعدد مما يزيّدنا إعجاباً بهذا الأديب الجزائري العالم، فقد اعتدنا على أن يكون شعر المحدثين والفقهاء، ثقيلًا جافًا لا يفيض بهذه الحياة والحساسية اللتين تفيض بهما أبيات بكر)) (46) .

مما سبق من شعر بكر بن حماد، يتضح تعامله مع مختلف الأنظمة السياسية في المشرق والمغرب، بروح إسلامية عامة، وروح مغربية خاصة، بعيداً عن الانتماء المذهبي الضيق، فقد كانت مثله إسلامية ذات نهج سني عموماً كأغلبية المسلمين مما جعله متفتحاً على جميع المذاهب أو التيارات الإسلامية، تعبيراً عن سعة أفقه الفكري في النظر إلى جميع أبناء الأمة الواحدة بعين الحب والود .

إن ابن حماد كان يقارن في الفحولة بشعراء المشرق في عصره، وبخاصة مع دعل الخزاعي السالف الذكر، "ومحمود مكي" يعترف بمكانته، فيقول : ((غير أننا نعرف قصة النزاع الذي نشب بين بكر ودعل، ولا شك في أن بكر بن حماد كان كبير الثقة بنفسه حينما تعرض لهذا الشاعر الذي عرف بشدة عارضته وذراية لسانه، لاسيما إذا قدرنا أن دعل كان يكبر شاعرنا التاهرتي بخمسين سنة)) (47) .

يتضح من هذا القول أن ابن حماد كان شاعراً فحلاً منذ نعومة أظفاره بدليل وقوفه أمام دعل هجاء الخلفاء العباسيين ومنهم الخليفة المعتصم، بل وتحريضه عليه بالقتل - كما تقدم - ثم أقر النقاد القدماء هذه الفحولة حينما التبس عليهم بيتين اثنين قِيلا في هجاء الخليفة المعتصم ؛ فمن قائل : إنهما لدعل الخزاعي نفسه، ومن قائل : بل إنهما لابن حماد صنعهما على لسان دعل يؤذيه ويهاجيه (48) .

ولا يدل هذا الالتباس في نسبة هذين البيتين إلى صاحبهما (ابن حماد أو دعل الخزاعي) إلا على شيء واحد كما يوضح مرتاض: ((وهو أن بكر بن حماد كان من

حيث مستوى الشعرية، في درجة عالية تلامس درجة دعبل الخزاعي الطائر الذكر، (السائر الشعر)) (49) .

وهناك من يؤكد ضياع كثير من شعره - كما أشرنا في المقال - بدليل غياب التصريح ((وذلك راجع إلى ضياع بعض شعره وخاصة الأجزاء الأولى من القصائد حيث التصريح - من البيت الأول - الأمر الذي تشي به بعض مقطوعاته وقصائده، من مثل اللامية التي رثى بها ابنه عبد الرحمن :

وهون وجدي أني بك لاحق وأن بقائي في الحياة قليل

إذ يبدو أن هذا البيت عطف على قول سابق، كما يبدو هذا الملمح في البيتين اللذين مدح بهما أحمد بن سفيان أمير الزاب)) (50) .

وقد وثق "مرتاض" بيتين آخرين لهذه الأبيات المبتورة المطلع، ويؤيد رأي "نبوي" في مدح أمير الزاب بقوله: ((بيد أن أمر هذه المقطوعة ككثير من سواها لم يتجاوز بيتين اثنين، وهو أمر مستحيل، إذ لا يعقل أن يمدح شاعر مفلح مثل بكر بن حماد أميراً عربياً شهماً مثل ابن سودة التميمي، يطمع الشاعر في عطائه، ويتعشق الأمير الشعر الذي يتغنى بخلاله... أفلا يكون مرد هذا الأمر إلى ضياع نص القصيدة... في الفتن والإحن والحروب والصروف، فلم يبق فيها إلا هذان البيتان اللذان لا يدلان في أنفسهما إلا على حادثشة المدح، لا على المدح في نفسه ؟)) (51) .

ورغم هذا الضياع المفرط لشعر ابن حماد الذي يرجع بعضه إلى الفتن والحروب وصروف الدهر، وبعضه الآخر يرجع إلى إهمال الرواة وعزوفهم في روايته، وتجاهل المشاركة للمغاربة منذ القديم وعدم عنايتهم بأخبارهم والزهد في آثارهم - كما تقدم - وشاعرنا قضى جل عمره في المشرق بإقرار المترجمين له، إلا أنه يعد ((استهلال مبكر في القرن الثالث الهجري لما ينتظر الجزائر في الشعر من مستقبل خصب)) (52)، بل و"تويهض" يضعه ((من شعراء الطبقة الأولى في عصره)) (53).

والشاعر شأنه شأن الشعراء الآخرين وقع في بعض الأخطاء اللغوية، وذلك لا يحط من نبوغ الشاعر المبكر في ذلك العصر، القرن الثالث الهجري، لا من قيمة شعره، وهي:

إعادة واو الجماعة على ما لا يعقل، وترخيم فاطمة في غير النداء في البيتين (54) :

إن الساحة والمروءة والندى جمعوا لأحمد من بني القاسم
وإذا تفاخرت القبائل وانتمت فافخر بفضل محمد وبفاطم
الخاتمة:

يحق لمؤرخ الأدب أن يقر بأن ظهور بكر بن حماد الجزائري في القرن الثالث الهجري والذي غلب عليه لقب " الشاعر "، أي بعد الفتح الإسلامي بقليل، وهي فترة لا تكفي لظهور نابغين في الشعر، هي مفخرة للأدب المغربي، وانصع دليل على سمو عقليات أهله وآبائه .

الهوامش:

- 1، 2 - ينظر : ابن عذارى . البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب . تحقيق . ومراجعة ج. س . كولان وليفي بروفنسال . دار الثقافة . بيروت . ط 3 . 1983 . ص 95، مؤنس، حسين . معالم تاريخ المغرب الإسلامي . دار الرشاد . القاهرة . ط 7 . 2005 . ص 96، 143 .
- 3 - بكر بن حماد . الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي . تقديم وجمع وشرح محمد بن رمضان شاوش . المطبعة العلوية . مستغانم . الجزائر . ط 1 . 1966 . ص
- 4 - ابن عذارى . البيان المغرب . 1 : 196 .
- 5 - الحميري، محمد عبد المنعم . الروض المعطار في خبر الأقطار . تحقيق إحسان عباس . دار القلم للطباعة . لبنان . 1975 . ص 126، بكر بن حماد . الدر الوقاد . 17 وما بعدها
- 6 - ابن عذارى . البيان المغرب . 1 : 197، بونار، رابح . المغرب العربي، تاريخه وثقافته . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . 1968 . ص 33 - 38 .
- 7 - ابن عذارى . المصدر نفسه . 1 : 197، الحميري، محمد عبد المنعم . الروض المعطار . 126، مؤنس، حسين . معالم تاريخ المغرب الإسلامي . 120 .
- 8 - الطمار، محمد . تاريخ الأدب الجزائري . 28 .
- 9 - الطمار، محمد . المرجع نفسه . 28، مرتاض، عبد المالك . الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور . دار هومة للطباعة والنشر . الجزائر . 2005 . ص 44 .
- 10 - بونار، رابح . المغرب العربي، تاريخه وثقافته . 42 - 43 .
- 11 - بكر بن حماد . الدر الوقاد . 37 .

- 12 - مرتاض، عبد المالك . الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور . 62 .
- 13 - ضيف، شوقي . عصر الدول والإمارات (الجزائر - المغرب - موريتانيا - السودان) . دار المعارف . مصر . ط 1 . ص 81 .
- 14 - مرتاض، عبد المالك . الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور . 46 .
- 15 - مرتاض، عبد المالك . المرجع نفسه . 245 - 247 .
- 16 - بكر بن حماد . الدر الوقاد . 39 .
- 17 - الطمار، محمد . تاريخ الأدب الجزائري . 30 .
- 18 - بونار، رايح . المغرب العربي، تاريخه وثقافته . 37، بكر بن حماد . الدر الوقاد . 39 .
- 19 - الطمار، محمد . تاريخ الأدب الجزائري . 32 .
- 20 - نويهض، عادل . معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر . مؤسسة نويهض للثقافية والتأليف والترجمة والنشر . بيروت . ط 2 . 1983 . ص 58، بكر بن حماد . الدر الوقاد . 43 .
- 21 - بكر بن حماد . الدر الوقاد . 43 .
- 22 - ابن عذارى . البيان المغرب . 1 : 154 .
- 23 - بكر بن حماد . الدر الوقاد . 44 .
- 24 - هو أبو محمد عبد الله بن وهب القرشي من فقهاء المالكية وكبار محدثيهم، ولد بالقاهرة سنة 197 هـ، وتعلم بمكة والمدينة على يد الإمام مالك مدة عشرين سنة . من أشهر مؤلفاته : " الموطأ الكبير " و " الموطأ الصغير " والجامع الكبير " و " تفسير الموطأ " وكتاب " المناسك " وكتاب " سماعي عن مالك " و " المغازي " و " وأحوال يوم القيامة " . انظر : بكر بن حماد . الدر الوقاد . 44 هامش 3 .
- 25 - المالكي، أبو بكر . رياض النفوس . القاهرة . 1958 . ج 1 ص 259 .
- 26 - الإصفهاني . الأغاني . 22 : 7803 - 7804 .
- 27 - مرتاض، عبد المالك . الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور . 245 .
- 28 - مرتاض، عبد المالك . المرجع نفسه . 243 .
- 29 - ابن عذارى . البيان المغرب . 1 : 198 - 199 .
- 30 - مرتاض، عبد المالك . الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور . 109 - 137 .
- 31 - بكر بن حماد . الدر الوقاد . 54 .
- 32 - مرتاض، عبد المالك . الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور . 72 .
- 33 - ضيف، شوقي . عصر الدول والامارات (الجزائر ...) . 80 - 81 .

- 34، 35 - بكر بن حماد . الدر الوقاد . 57، 71،
 36 - المسعودي . مروج الذهب . دار الأندلس . بيروت . 1965 . ج 2 ص 415 .
 37، 38 - بكر بن حماد . الدر الوقاد . 62 - 66، 61 .
 39 - الحميري . الروض المعطار . 126 .
 40 - بكر بن حماد . الدر الوقاد . 80 - 83، .
 - مكي، محمود علي . بكر بن حماد التاهرتي . مجلة العربي . عدد 53 . ص 84.
 41، 42، 43 - بكر بن حماد . الدر الوقاد . 75، 76، 78 - 79 .
 44 - بونار، رايح . المغرب العربي تاريخه وثقافته . 133 .
 45 - بكر بن حماد . الدر الوقاد . 56 .
 46 - مكي، محمود علي . بكر بن حماد التاهرتي . مجلة العربي . عدد 53 . ص 84.
 47 - مكي، محمود علي . المرجع نفسه . عدد 53 . ص 81 .
 48 - ابن رشيق لمسيلى . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . دار الجيل . بيروت . ط 5 . 1981 . ج 1 ص 72 .
 49 - مرتاض، عبد المالك . الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور . 73 .
 50 - نبوي، عبد العزيز . محاضرات في الشعر المغربي القديم . 141 .
 51 - مرتاض، عبد المالك . الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور . 64 - 65 .
 52 - ضيف، شوقي . عصر الدول والامارات (الجزائر ...) . 162 .
 53 - نويهض، عادل . معجم أعلام الجزائر . 58 .
 54 - بكر بن حماد . الدر الوقاد . 72 .